مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

العدد ٤٩/٢٠٠٧

الأحد ٩ كانون الأول

تذكار حبل القديسة حنة جدّة الإله

اللحن الثالث

إنـجيل السَّحَر السادس

الرسالة

(غلاطية ٤: ٢٢-٢٧)

يا إخوةُ إنّه كان لإبرهيم إبنانِ أحدُهما من الجارية والآخر من الحرَّة* غيرَ أنَّ الذي من الجاريةِ وُلِدَ بحسبِ الجسدِ أمَّا الذي من الحرَّة فبالموعد* وذلك إنَّما هو رمزٌ. لأنَّ هاتينِ هما العهدانِ أحدُهما من طورِ سيناءَ يلِدُ للعبوديَّةِ وهو هاجَر* فإنَّ هاجَر بل طورَ سيناءَ جبلٌ في ديارِ العربِ ويناسِبُ أورَشليمَ الحاليَّة. لأنَّ هذه حاصِلةٌ في العبوديَّةِ مع أولادها* أمَّا أورشليمُ العُليا فهي حرَّةٌ وهي أمُّنا كلنا* لأنَّه كُتِب إفرحي أيتها العاقِرُ التي لم تلِد. أهتفي واصرُخي أيتها التي لم تتمخَّض. لأنَّ أولادَ المهجورةِ أكثرُ من أولادِ ذاتِ الرَّجُل.

الإنجيل

(لوقا ١٣: ١٠-١٧)

في ذلك الزمان كان يسوعُ يعلّمُ في أحدِ المجامعِ يومَ السبت* وإذا بامرأةٍ بها روحُ مرضٍ منذ

حول الرسالة

مقطع الرسالة الذي يُتلى على مسامعنا مستقىً من رسالة القديس بولس الرسول إلى أهل غلاطية. من الثابت أن بولس، في هذه الرسالة، يواجه جماعةً من المسيحيين المتهوّدين الذين كانوا يحاولون إقناع الغلاطيين بأن الإنجيل الذي بشّرهم به الرسول غير كافٍ للخلاص، بمعنى أن عليهم أن يختتنوا، أي أن يصبحوا يهودًا، حتى ينالوا الخلاص كاملاً.

من المرجّح أن بولس، في هذا المقطع، يردّ على واحدة من الحجج التي راح المتهوّدون ينشرونها بين الغلاطيين، وفحواها أن المسيحيين أهل غلاطية هم مصافّ ابن ابرهيم الذي من جاريته هاجر، أي إسماعيل، فيما المسيحيون الذين اختتنوا هم من مصافّ ابنه الذي من زوجته الحرة، أي سارة. ويزيد في أرجحية هذه الفرضيّة ما يكتبه بولس في نهاية الإصحاح، ردًّا على مناوئيه: «إذًا أيها الإخوةُ لسنا أولادَ جاريةٍ بل أولادُ الحُرَّة» (غلا ٤:٣١). ما هو السبب الذي دفع المتهوّدين إلى إلصاق مثل هذه الصفة بالمسيحيين الغلاطيين الذين كان بولس قد بشّرهم؟ لعلّ السبب هو انتماء الكثير من الغلاطيين، في المجتمع الروماني، إلى طبقة العبيد. ففي موضع آخرٍ من هذه الرسالة يكتب بولس: «لأنَّ كلَّكمُ الذينَ اعتمَدْتُم بالمسيحِ قد لبستمُ المسيحَ، ليس يهوديٌّ ولا يونانيٌّ، ليس عبدٌ ولا حرٌّ، ليس ذكرٌ وأنثى لأنكم جميعًا واحدٌ في المسيح يسوعَ» (غلا ٣: ٢٧-٢٨)، معتبرًا أن الإيمان بيسوع هو ما يجعل الكل في مرتبة واحدة ويوحّدهم، سواء كانوا يونانيين أو يهودًا، أحرارًا أو عبيدًا، رجالاً أو نساءً. حجّة المتهوّدين التي يرغب بولس في دحضها، إذًا، هي أن الغلاطيين قائمون في مرتبة العبودية، في مرتبة اسماعيل ابن هاجر.

يستهلّ بولس ردّه بإيراد ما ورد في قصة العهد القديم عن ابرهيم وولديه. فالثابت أن اسماعيل كان ولد الجارية، فيما اسحق هو ولد الحرّة. لكن الملاحظ أن بولس يضيف: «لكن الذي من الجاريةِ وُلدَ حسبَ الجسدِ وأما الذي من الحرَّةِ فبالموعدِ» (غلا ٤: ٢٣).

ثماني عشْرَة سنةً وكانت منحنيةً لا تستطيعُ أن تنتصِبَ البتَّةَ*فلمَّا رآها يسوعُ دعاها وقال لها إنَّكِ مُطلَقةٌ من مرضِكِ* ووضع يديهِ عليها وفي الحال استقامَتْ ومجَّدتِ اللهَ* فأجابَ رئيسُ المجمعِ وهو مغتاظٌ لإبراءِ يسوعَ في السبتِ وقال للجمعِ هي ستَّةُ أيَّام ينبغي العملُ فيها. ففيها تأتون وتَستشفون لا في يوم السبت* فأجاب الربُّ وقال يا مُرائي أليس كلُّ واحدٍ منكم يَحُلُّ ثورَهُ أو حمارَهُ في السبتِ من المذوَدِ وينطلِقُ به فيسقيه* وهذه وهي ابنةُ إبرهيمَ التي ربَطها الشيطانُ منذ ثماني عشْرَةَ سنةً أمَا كان ينبغي أن تُطلَقَ من هذا الرباطِ يومَ السبت* ولمَّا قال هذا خَزِيَ كلُّ مَن كان يقاومُهُ وفرِحَ الجمعُ بجميع الأمورِ المجيدةِ التي كانت تصدر منه.

تأمل

ينبغي لنا أن نتمسَّك بأقوال ربنا ونحافظ على خلاص نفوسنا لنكون أهلاً لقبول المواهب الإلهية والخلود في النعيم الأبدي. فإن الذين كانوا ينظرون إلى طهارة الأجسام والأواني وتفضيل الأيام حتى بلغ من جهلهم انهم ينكرون على من يفرك يوم السبت سنبلةً أو يشفي مخلّعاً

من الضروري، في البداية، أن نوضح ما يقصده بولس حين يستخدم عبارتَي «بحسب الجسد» و«بالموعد». العبارة الأولى تشير إلى أن ولادة اسماعيل أتت بحسب مشيئة بشرية، لأن سارة هي التي أوعزت إلى ابرهيم أن يدخل على جاريتها حتى يكون له نسل منها (تك: ١٦). أما ولادة اسحق فأتت لا بحسب مشيئة بشر، بل وفقًا لمشيئة الله الذي وعد ابرهيم أن سيكون له نسل من سارة رغم عقرها. ولادة اسحق، ابن سارة، تمّت، إذًا، بفعل تدخّل إلهي، لا بفعل مشيئة بشرية صرف. ولكن، ما الذي يدفع الرسول بولس، في بدء الآية ٢٣، إلى الاعتبار أن ثمّة نوعًا من التضاد بين مرتبة الوالدتين (حرة/جارية)، من جهة، وبين طريقة الولادة (بحسب الجسد/بالموعد)، من جهة أخرى؟ فهو لا يستعمل حرف عطف عادي، كقوله مثلاً: «أحدهما من الجارية والآخر من الحرة، **والذي** من الجارية وُلد بحسب الجسد إلخ»، بل يستعمل أداةً تشير إلى التضادّ: «أحدهما من الجارية والآخر من الحرة، **غير أن الذي** من الجارية وُلد بحسب الجسد إلخ». الأرجح أن بولس يسعى إلى دحض حجة المتهوّدين عبر التأكيد أن الفرق الأساسي بين اسماعيل واسحق لا يكمن في أن الأول مولود من أمة، فيما الثاني مولود من حرة. هذا الفرق قائم طبعًا، لكنه ليس محور القصة في العهد القديم. هذا المحور يقوم في أن ابن هاجر وُلد بمشيئة بشرية، فيما ابن سارة وُلد بفضل الموعد الذي قطعه الله لابرهيم. بولس يسعى، إذًا، إلى وضع قصة العهد القديم التي يستخدمها المتهوّدون للطعن بالغلاطيين في سياقها الحقيقي. بيت القصيد في القصة يكمن في أن اسحق هو ابن الموعد، لا في أنه ابن امرأة حرة، وأن اسماعيل مولود بحسب الجسد، لا في أنه ابن الأمة.

يتابع بولس حجّته معتبرًا أن المرأتين، الجارية والحرّة، تشكّلان رمز العهدين، العتيق والجديد. مصدر كلام بولس عن العهدين هو نصّ من كتاب إرمياء النبي: ها أيامٌ تأتي يقولُ الربُّ وأقطَعُ مع بيتِ إسرائيلَ ومعَ بيتِ يهوذا عهْدًا جديدًا. ليسَ كالعهدِ الذي قطعتُهُ مع آبائهم يومَ أمسَكْتُهُمْ بيدِهِمْ لأُخرِجَهُمْ من أرض مِصرَ حين نقضوا عهدي فرَفَضْتُهُمْ يقولُ الربُّ. بل هذا هو العهدُ الذي أقطَعُهُ مع بيتِ إسرائيلَ بعدَ تلك الأيام يقولُ الربُّ. أجعلُ شريعتي في داخلِهِمْ وأكتُبُها على قلوبهِمْ وأكونُ لهمْ إلهًا وهمْ يكونونَ لي شعبًا» (إر ٣١: ٣١–٣٣). من الملاحظ، هنا، أن العهد الجديد الذي سيقطعه الله مع شعبه، حافرًا شريعته على لحم قلوبهم، هو بخلاف عهد جبل سيناء حيث الشريعة محفورة على الحجارة. بولس، إذًا، يسير في ركاب هذا النص النبوي حين يعتبر أن جبل سيناء، الذي تمثّله هاجر، إنما يلد للعبودية، بمعنى أن المتمسكين بالعهد المقطوع في سيناء والرافضين العهد الجديد، الذي دشّنه يسوع، هم العبيد الحقيقيون.

إن رافضي العهد الجديد هؤلاء هم القائمون في أورشليم الحاضرة. أما أورشليم العليا فهي أُمّ كل المؤمنين بيسوع وهي التي ينطبق عليها قول إشعياء النبي: «ترنّمي أيتها العاقرُ التي لم تلِدْ أشيدي بالترنّم أيتها التي لم تمخَضْ» (أش ٥٤:١). الحق أن هذا النص، من كتاب أشعياء، الذي يصف كيف أن الله سيُنشئ أورشليم الجديدة يذكّر بسارة التي كانت عاقرًا، ثم أنجبت مولودًا ذكرًا بفعل وعد الله. والملاحظ أن كتاب أشعياء هو الوحيد بين كتب العهد القديم،

وامرأة منحنية هؤلاء سقطوا من مراتب الفضيلة وحُسِبوا مع الخائبين. لأنه إنما يريد رحمةً لا ذبيحةً. ولهذا ينبغي لنا الاهتمام بمصالح النفوس لا بالأيام بحد ذاتها ولا بالأشياء المصنوعة لخدمة الناس. ولهذا لا نظنُّ يا هؤلاء انه يجدينا نفعاً في أمر الخلاص أن نغتصب أموال اليتامى والأرامل وأمثالهم ونصنع بها كأساً للقربان من ذهبٍ مرصَّعاً بالحجارة الكريمة ومائدةً للأسرار المقدَّسة وغير ذلك. ولكن إن أردت يا هذا أن تكرّم الذبيحة الطاهرة فاكرم الأنفس التي ذُبحت لأجلها لأن سيدنا له المجد نزَّل هذه الأنفس منزلته حيث وبَّخ الذين لا يهتمون بها بقوله جعت فلم تطعموني وعطشت فلم تسقوني وكنت عرياناً فلم تكسوني وغير ذلك من العبارات الواردة في الإنجيل الشريف. فإن أهملت هذه وتركتها وصنعت لتلك أواني من الذهب والفضة فإنك لا تستفيد شيئاً.

... على انني لا أقول هذا ناهياً إياكم عن أن تقدموا للكنائس مثل هذه الهدايا بل عن الاشتغال بتقديمها عن رحمة المحتاجين حتى ان الاهتمام بهم ينبغي أن يكون أكثر لأن الله يقبل الهدايا المذكورة ولكن الرحمة أكثر قبولاً عنده.

طبعًا باستثناء كتاب التكوين، الذي يذكر سارة بوصفها أُمًّا: «انظروا إلى ابرهيمَ أبيكُمْ وإلى سارةَ التي ولدتْكُمْ» (إش ٢:٥١). هذا يفسّر سبب لجوء بولس إلى صورة الأم معتبرًا أن أورشليم الجديدة، التي يخصبها الله كما يُخصب العاقر، هي أمُّنا جميعًا. أورشليم الجديدة هذه قائمة في كل من آمن بيسوع من الغلاطيين وغيرهم، ورمزها سارة. هذا ما يمكّن بولس من الطلوع بالاستنتاج أن الغلاطيين الذين كانوا من الوثنيين هم، في الحقيقة، أولاد سارة، أولاد الحرة، أولاد الموعد (غلا ٣١:٤)، لأن الله أخصب عقرهم بواسطة الإيمان بيسوع.

هذه البشرى السارة التي حملها بولس إلى الأمم، طوال حياته، تتمثّلها أذهاننا في ذكرى حبل القديسة حنّة بوالدة الإله، لا لأن حنّة كانت عاقرًا مثل سارة فحسب، بل لأن الله افتتح في الحبل بمريم، والدة الإله، هذا المدّ الخلاصي الذي سيبلغ ذروته في موت المولود من مريم على الصليب وقيامته. ميلاد ابن الله، الذي سنعيّد له قريبًا، وموته وقيامته هو ما يحقق فينا حضور أورشليم الجديدة التي دعاها الرسول بولس، في رسالة اليوم، أمّ المؤمنين جميعًا، ويجعلنا، رغم كوننا من «الأمم»، أولاد سارة، أولاد الموعد.

في الصوم

لقد شرحنا في العدد السابق ارتباط الصوم بالإفخارستيا وضرورة الصوم قبل المناولة المقدَّسة، لأن الصوم هو حالة تهيئة وانتظار للملكوت، وكون الإفخارستيا هي التذوق المسبَق لمائدة الملكوت، لذا ينبغي أن يسبق القداس الإلهي صوم تهيئة للإشتراك في مائدة الرب. على أن للصوم معنًى آخر يتكامل مع المفهوم الذي شرحناه.

لقد نشأ الصوم وتطوّر عملياً في الأوساط النسكيَّة الرهبانية. فالصوم هو أداة حرب ضد قوى الشرير ووسيلة نمو في الحياة الروحية. أصل فكرة الصوم متجذرة أيضاً في الكتاب المقدس. فالرب يسوع لم يبدأ بشارته إلاَّ بعد أن صام أربعين يوماً في البرية جاء في نهايتها الشرير ليجرّبه ولم ينجح (متى ٤). كما نجد الرب يسوع يقول ان الصوم والصلاة هما الوسيلتان الوحيدتان للإنتصار على الشيطان (متى ٢١:١٧).

حسب الكتاب المقدس، وسفر التكوين تحديداً، فقد هزم الشيطان الإنسان وصار سيداً عليه عبر الطعام، عبر الأكل. لقد أوصى الله آدم أن لا يأكل من شجرة معرفة الخير والشر، لكن آدم خالف الوصية وأكل من الثمر الممنوع عليه أكله، وبفعله هذا استُعبد الإنسان للطعام وصار كل وجوده يعتمد على الطعام والأكل. «وقال (الرب) لآدمَ لأنَّك سمعتَ لقولِ امرأتِك وأكلتَ من الشجرةِ التي أوصيتُك قائلاً لا تأكُل منها ملعونةٌ الأرضُ بسببِك. بالتعبِ تأكُل منها كُلَّ أيَّام حياتِك. وشوكاً تُنبتُ لك وتأكُل عُشْبَ الحقل. بعَرَقِ وجهِكَ تأكُلُ خُبزاً حتى تعودَ إلى الأرضِ التي أُخذْتَ منها» (تكوين ٣: ١٧–١٩). لهذا السبب، ومن هذا المنظور الكتابي، لا يمكن المساواة بين الصوم وبين أي نظام طعام يعتمد على نوع معيَّن من الأطعمة. والصوم الأصيل، الإمتناع الحقيقي عن الأكل، الصوم الذي تمدحه الكنيسة، هو تحدي نظام الطبيعة التي سقطت بفعل الخطيئة، هذا النظام الذي فيه يعيش الإنسان ليأكل، ومن خلاله تحدي الشيطان نفسه. فلا شيء يؤذي الشيطان ويدمِّر قدراته إلاَّ تجاوز الإنسان النظم التي أقنعه بها الشيطان، أي انه

لأن مقدّم الهدايا للكنيسة ينتفع بها وحده وأما المتصدّق على الفقراء فينفع مع نفسه كثيرين. وتلك يُظَنُّ انها قُدِّمت للافتخار وهذه لقصد الرحمة. ألا ترى انك لو رأيت إنساناً يتضوَّر من الجوع والعطش فأخذته إلى منزلك وجعلت تهتمُّ له بزينة البيت والمائدة فتنشر سجوف الديباج وتُعلِّق قناديل الفضة وغير ذلك من الزخارف ولا تهتمُّ بسدّ جوعه وريّ عطشه ألا تزيدهُ بذلك تحرُّقاً وتوجُّعاً وتُعرِّض ذاتك للثلب وتُنزِّل نفسك منزلة المجانين. وقد كان رغيفٌ من الخبز وقدحٌ من الماء يمنعان عنك هذه الريبة. وأقول أيضاً إن أواني الذهب والفضة قد تُقدِّمها الملوك وعظماء الناس والخطأة حتى اللصوص والخطفة. وأما الرحمة فهي مختصةٌ بالأتقياء الخائفين من الله. ولو فحصنا الناموس العتيق والجديد لوجدنا كثيراً من الوصايا التي توصي بالرحمة كقوله اعطوا صدقةً وكل شيء يصير طاهراً لكم وقوله اني أريد رحمةً لا ذبيحة وغير ذلك. وإذا عرفنا حقيقة هذه الأقوال فلنزرع بالبركات الكثيرة ونأخذ بالمكاييل الفائضة وننال نعمة ربنا الذي له المجد إلى الأبد، آمين.

القديس يوحنا الذهبي الفم

بدون الطعام يموت الإنسان وبالتالي فإن حياته تعتمد على الطعام. إلا انه بالصوم، عبر رفض الطعام طوعياً، يكتشف الإنسان انه لا يحيا بالخبز وحده «بل بكل كلمة من الله» (متى ٤:٤). وعندها يصبح الصوم رفضاً لما هو «ضروري » وترويضاً حقيقياً لذاك الجسد (اللحم) الذي يعتمد كلياً وحصرياً على الطعام بحسب ما أقنعه الشرير في السقوط. في الصوم، يصل الإنسان إلى الحرية التي فقدها في الخطيئة، ويحيي من جديد، في الكون، الملكيَّة التي دمرها هو عندما تجاوز إرادة الله. الصوم هو عودة حرّة إلى تحقيق الوصية التي خالفها آدم. عندها يصبح الطعام هبّة إلهية ولا يعود الطعام «حاجة» بل يصبح صورة للمائدة المسيانية، ويصبح هم الإنسان «أن يحيا في الله» لا «أن يأكل ليحيا».

إذاً، الصوم ليس امتناعاً عن بعض الأطعمة لأنها نجسة، بل هو ترويض للنفس والجسد للنمو الروحي للإنسان وللتهيئة لاستقبال الملكوت حيث يُقام جسم الإنسان «جسماً روحانياً» (١ كو ٤٤:١٥). بعدما أنهى الله خلقه الكون وكل ما فيه، «رأى اللهُ كلَّ ما عملَه فإذا هو حَسَنٌ جدًّا» (تكوين ٣١:١). أي ان كل ما هو موجود في هذا العالم هو حسن، والمشكلة تكمن في إساءة استعماله كما حدث مع آدم. يحاجج البعض انه لم يُذكر في الكتاب المقدس ما يجب أكله في فترات الصوم وما يجب الإمتناع عنه، ويضيفون مستشهدين بقول السيد «ليس ما يدخُلُ الفمَ يُنجِّسُ الإنسانَ، بل ما يخرُجُ من الفمِ هذا يُنجِّسُ الإنسانَ» (متى ١٥: ١١).

لم تعلّم الكنيسة أبداً ان أي نوع من الطعام هو نجس، ولا تدعو للإمتناع عن بعض الأطعمة لأنها نجسة. فالكنيسة تعرف الكتاب جيداً وتعلم ان كل ما خلقه الله حسنٌ. في الإصحاح العاشر من سِفر الأعمال نقرأ قصة معمودية كورنيليوس قائد المئة الروماني الوثني على يد بطرس. ولكي يشجع الرب بطرس على تعميد كورنيليوس غير اليهودي أظهر له في رؤيا شرشفاً عليه جميع أنواع حيوانات الأرض «وصارَ إليه صوتٌ قُمْ يا بطرسُ اذبَح وكُلْ. فقالَ بطرسُ كَلاَّ يا ربُّ لأنّي لم آكُلْ قطُّ شيئاً دَنِساً أو نجِساً. فصارَ إليه أيضاً صوتٌ ثانيةً: ما طهَّرَهُ اللهُ لا تُدنسه أنتَ» (١٠: ١٣-١٥). إذاً ليس من طعام نجس. ما تعلّمه الكنيسة، من خلال ممارسة الآباء القديسين الذين جاهدوا ووصلوا إلى الملكوت، ان أحد أوجه الصوم هو العودة إلى الحالة الفردوسية قبل الخطيئة حيث كان الإنسان يعيش في سلام مع باقي خليقة الله وحيث طعام الإنسان كان البقول وثمر الشجر: «وقال اللهُ (للإنسان) إنّي قد أعطيتُكم كُلَّ بَقْلٍ يُبزِرُ بِزْراً على وجهِ كلِّ الأرض؛ وكُلَّ شجرٍ فيه ثمَرُ شجرٍ يُبزِرُ بزراً، لَكم يكونُ طَعاماً» (تكوين ١: ٢٩). في الإمتناع عن أكل لحم الحيوان والطيور نوع من العودة إلى الحالة الفردوسية. وهذا هو هدف الصوم: التهيئة لاستقبال الملكوت الآتي. لذا فإننا نصوم قبل عيدي الميلاد والفصح استعداداً لاستقبال ملك المجد الآتي ليفتتح ملكوت السموات بتجسده وأخذه جسداً مثلنا ولكي يُسمِّر صك الخطيئة على الصليب.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:
www.quartos.org.lb